QIJIS: *Qudus International Journal of Islamic Studies*
Volume 2, Issue 1, February 2014

لمحة تاريخية عن جمع القرآن وتدوينه عند المفسرين والمستشرقين

أحمد أتابك
الجامعة الإسلامية الحكومية بقدس جاوى الوسطى إندونيسيا
atabik78@gmail.com

الملخص

البحث المتواضع أن هناك السؤال أين وجدت المصاحف العثمانية الآن؟ ولن يجد بجواب على هذا السؤال، فإن الزركشة والنقوش الفاصلة بين السور أو المبينة لأعشار القرآن تنفي أن تكون المصاحف الأثرية في دار الكتب بالقاهرة عثمانية، لأن المصاحف العثمانية كانت مجردة من كل هذا. ولكن بعض المستشرقين قد جمعوا كثيرا من الروايات التاريخية التي تؤكد رؤية بعض العلماء القدامى للمصاحف أو لسور منها في أمصار إسلامية معينة, وفي طليعة هؤلاء المستشرقين الأستاذ كواترمير كما أشار إلى ذلك كل من برجشتراسر وبرتزل في دراستهما لتاريخ النص القرآني. ثم إن المستشرق كازانوفا اعتمد على دراسة سلفه كواترمير فأعاد النظر فيها واستدرك عليها الكثير، ومنه علمنا أن أحد المصاحف العثمانية كان في مستهل القرن الرابع الهجري معروفا في بعض الأوساط العلمية، وأن الرحالة المشهور ابن بطوطة رأى بنفسه بعض تلك المصاحف التي يظن أنها عثمانية. أو بعض صحائف منها فقط، في غرناطة ومراكش والبصرة وبعض المدن الأخرى

الكلمات المفتاح: لمحة تاريخية، القرآن وتدوينه، المستشرقين.

أ. مقدمة

يرى المسلمون أن القرآن كلام الله المنزل على النبي محمد بألفاظه العربية لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه تنزيل من حكيم حميد. فكانت همة النبي من القرآن أن

يحفظه ويستظهره ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه ضرورة أنه نبي أمي بعثه الله في الأميين. {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

وقد عنى المسلمون القرآن مر العصور أبلغ العناية، وحظي بأعلى درجات الحرص والحيطة، فكان المسلمون في هذا الحين يجتهدون في المحافظة عليه بشتى الوسائل التي تتاح لهم، فلم يخل عصر من العصور، ولم يخل مصر من الأمصار، من حامل (اي حافظ) للقرآن، يقوم به آناء الليل وأطراف النهار، كما لم يخل من مصحف شريف، سطرت فيه آيات القرآن، وحفظت من التحريف. فأما في زمن الرسول، اجتهد صلوات الله وسلامه عليه في حفظ القرآن الكريم وجمعه عند كتابي الصحابة رضوان الله عليهم.

لقد كان المستشرقون يزعمون إلى القرآن الكريم على أنه كتاب من وضع إنسان، واختراع بشر. وحاشاه . نزوة كذاب، وغلطة متهور خساف، وإذا كان كذلك يستحقون منهم الخبث في تاريخ نقله، والتكذيب لطريقة جمعه وتدوينه، والدفع في الصدر لأساليب ثبوته ووصوله. ولقد اقتضى ذلك من المستشرقين الطاعنين أن يعدوا له أهبة التكذيب، وسلسلة الإرجاف والتلبيس، إذ ما تركوا شبهة إلا روجوا لها، ولا ثلمة إلا ضخموها ووسعوها، كما أنهم لم يدعوا من تاريخ الفِرى في القرآن الكريم فرية إلا أعادوها جذعة، ولا كذبة إلا صححوها وأثبتوها.

ب. معنى جمع القرآن

يرى القطان أن جمع القرآن يطلق به على معنيين, الأولى: جمعه بمعنى حفظه، يقال جماع القرآن بمعنى حفاظه، وهذا المعنى هو الذي ورد في قوله تعالى في خطابه لنبيه, وقد كان يحرِّك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا نزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصًا على أن يحفظه: (مناع القطان ٢٠٠٠, ص. ٢١) (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ, إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ, فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ, ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ). وما زال النبي كذلك حتى طمأنه ربه بأن وعده أن يجمعه له في صدره وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه. ولذلك كان النبي جامع القرآن في قلبه الشريف وسيد الحفاظ في عصره المنيف. ومرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن وعلوم القرآن. وكان صلى الله عليه وسلم يقرؤه على الناس على مكث كما أمره مولاه وكان يحيي به الليل ويزين الصلاة. وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة. وعارضه إياه في العام الأخير مرتين(الزرقاني ص. ٦٥٢)

والثانية: جمع القرآن يطلق به كتابته كله، مفرَّق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط، وكل سورة، في صحيفة على حدة، أو مرتب الآيات والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعًا وقد رُتِّب إحداها بعد الأخرى. وقد حظى القرآن بأوفى نصيب من عناية

النبي وأصحابه فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها في عصرهم. ولذلك كان النبي قد اتخذ كتابا من الصحابة للوحي كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته مبالغة في تسجيله وتقييده. وزيادة في التوثق والضبط والاحتياط في كتاب الله تعالى حتى تظاهر الكتابة الحفظ ويعاضد النقش اللفظ. ومن هؤلاء الكتاب من الصحابة السابقين فهم من الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابة الآخرين معاوية وأبان بن سعيد وخالد ابن الوليد وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وثابت بن قيس وغيرهم. وكان صلى الله عليه وسلم يدلهم على موضع المكتوب من سورته. ويكتبونه فيما يسهل عليهم من العسب.

ج. عملية جمع القرآن في عهد الرسول عند المفسرين والمستشرقين

يقول الزرقاني أن همة الرسول وأصحابه كان متصرفة أول الأمر إلى جمع القرآن في القلوب بحفظه واستظهاره ضرورة أنه نبي أمي بعثه الله في الأميين. كما كان أدوات الكتابة لم تكن ميسورة ومتوفرة لديهم في ذلك العهد ومن هنا كان التعويل على الحفظ في الصدور يفوق التعويل على الحفظ بين السطور. على عادة العرب أيامئذ من جعل صفحات صدورهم وقلوبهم دواوين لأشعارهم وأنسابهم ومفاخرهم وأيامهم. ولكن القرآن حظي بأوفى نصيب من عناية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها في عصرهم.

ويقول السيوطي منقولا من كلام الخطابي إنما لم يجمع القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر. وأما ما أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ''لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن'' الحديث. وكان النبي يتخذ كتابا للوحي فيهم الخلفاء الأربعة ومعاوية وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وخالد بن الوليد وثابت بن قيس، كان يأمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن، حتى تظاهر الكتابة جمع القرآن في الصدور.(جلال الدين السيوطي٢٠٠٢, ص. ٢٠٢).

كما كان يطلق على بعض الصحابة كانوا يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم، دون أن يأمرهم النبي –صلى الله عليه وسلم– فيخطونه في العسب، واللِّخاف، والكرانيف، والرقاع، والأقتاب، وقطع الأديم، والأكتاف. يقول الكردي أن عدم جمعه في مجلد في حياته عليه النبي كان لسببين, السبب الاول, الامن فيه من وقوع خلاف بين الصحابة لوجوده صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم. والسبب الثابي, خوف نسخ شئ منه

بوحى قرآن بدله، ففى الاتقان قال الخطابى انما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن في مصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته. (محمد طاهر الكردي ٦٩٩١, ص. ٥٤)

وكان هذا التجميع من الآيات القرآنية عبارة عن ترتيب الآيات على قدر إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام, فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول للنبي: ضعوا كذا في موضع كذا. ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله عز وجل. وأما ترتيب السور فتوقيفي أيضا، وقد علم في حياته صلى الله عليه وسلم، وهو يشمل السور القرآنية جميعا، ولسنا نملك دليلا على العكس، فلا مسوغ للرأي القائل: إن ترتيب السور اجتهادي من الصحابة، ولا للرأي الآخر الذي يفصل: فمن السور ما كان ترتيبه اجتهاديا، ومنه ما كان توقيفيًا. ووقف رسول الله بدوره كتبة الوحي على ذلك. أخرج أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: ''أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى}, إلى آخرها.

ولكن ليس الحال كذلك عند المستشرقين, وهم يرون أن القرآن الكريم لم يكن مجموعا و مدونا على عهد النبي، ويتأخر جمعه وتدوينه في كتاب واحد وديوان جامع، ومصحف تام كامل إلى زمن متأخر بعد وفاة النبي. ومنهم من قالوا بهذا الرأي وروَّجوا له، واعتقدوه مذهبا في العلم صحيحا، غوستاف لوبون الذي يرى أن '':القرآن هو كتاب المسلمين المقدس، ودستورهم الديني والمدني والسياسي الناظم لسيرهم، وهذا الكتاب المقدس قليل الارتباط مع أنه أنزل وحيا من الله على محمد، وأسلوب هذا الكتاب بعيد من الترتيب فاقد السياق كثيرا، ويسهل تفسير هذا لدى النظر في كيفية تأليفه فقد كُتب تبعاً لمقتضيات الزمن بالحقيقة، و قد دوَّن ذلك في القرآن، ولم يكن يُجمع القرآن نهائيا إلا بعد وفاة محمد، وبيان الأمر أن محمداً كان يتلقى في حياته عدة نصوص عن الأمر الواحد، فلما انقضت عدة سنين على وفاته حمل خليفته الثالث على قبول نص نهائي مقابلا بين ما جمعه أصحاب الرسول، والقرآن مؤلف من مئة وأربع عشرة سورة وكل سورة مؤلفة من آيات، ومحمد هو الذي يتحدث فيها باسم الله على الدوام.(ابو بكر كافي, ص. ٨) .

وقد رد علماء المسلمين ومنهم المفسرون آراء المستشرقين,بأنَّ تأخير تدوين القرآن في زمن الرسول جمعه فى مصحف واحد، لامساس له مطلقًا بوحدة القرآن وصلة كل كلمة بالوحى الإلهى ؛ لأن القرآن قبل جمعه فى مصاحف كان محفوظًا كما أنزله الله على النبي وحده. وكان طبيعة العرب هي طبيعة الحفظ, وكان العرب قبل الإسلام وفى صدر الإسلام المبكر كانوا ذوى ملكات فى الحفظ لم يماثلهم فيها شعب أو أمة من قبلهم أو معاصرة لهم

، ومن يعرف الكتابة والقراءة فيهم قليلون فكانوا يحفظون عن ظهر قلب ما يريدون حفظه من منثور الكلام ومنظومه. كما رد كذلك الزركشي بقوله أن القرآن لم يُكتب في عهد النبي مصحف لئلا يُفضي إلى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته, صلى الله عليه وسلم» وبهذا يُفسَّر ما رُوِيَ عن زيد بن ثابت، قال: «قُبِضَ النبي –صلى الله عليه وسلم– ولم يكن القرآن جُمع في شيء» أي لم يكن جُمع مرتب الآيات والسور في مصحف واحد. (الزركاشي7991, ص. 332)

د. عملية جمع القرآن في عهد أبي بكر عند المفسرين والمستشرقين

في عهد الرسول لقد كتب القرآن كله, إلا أنه كان مفرق الآيات والسور، وأول من جمعه في مصحف مرتب الآيات –كما رويت محفوظة عن الرسول– هو أبو بكر. وقد حقق صبحي الصالح هذا القول بقول أبو عبد الله المحاسبي في كتاب «فهم السنن»: «كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعا، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيها القرآن منتشرًا، فجمعها جامع وربطها بخيط، حتى لا يضيع منها شيء».

وكان أول عملية الجمع للقرآن على عهد أبي بكر بعد ما انفجرت موقعة اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة، ففي تلك الموقعة بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب، استشهد سبعون من حفظة القرآن من الصحابة، وفكر عمر بن الخطاب كثيرا عن هذه المسألة ثم جاء إلى أبي بكر ليقترح عن جمع القرآن. وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده. قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر «أي: اشتد» يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر يجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله –صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن! قلت: كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللِّخاف وصدور الرجال، ووجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع غيره {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ}

١, حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر».(أخرجه البخاري)

فهذا الحديث كما ترى يدل على مبلغ اهتمام كبار الصحابة بالمحافظة على القرآن وعلى مبلغ ثقة أبي بكر وعمر بزيد بن ثابت وعلى جدارة زيد بهذه الثقة لتوافر تلك المناقب التي ذكرها فيه أبو بكر. ويؤيد ورعه ودينه وأمانته قوله: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن ويشهد بوفرة عقله تردده وتوقفه أول الأمر ومناقشته لأبي بكر حتى راجعه أبو بكر وأقنعه بوجه الصواب. وقد راعى زيد بن ثابت نهاية التثبت، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، وقوله في الحديث: «ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره» وكان زيد يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك، لأن زيدًا كان يعتمد على الحفظ والكتابة معًا، فكانت هذه الآية محفوظة عند كثير منهم، ويشهدون بأنها كُتِبت، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند أبي خزيمة الأنصاري.

وقد وضع زيد بن الثابت منهجا في جمع القرآن بطريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبت بالغ وحذر دقيق وتحريات شاملة فلم يكتف بما حفظ في قلبه ولا بما كتب بيده ولا بما سمع بأذنه. ولكن جعل يتتبع ويستقصي آخذا على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين: أحدهما ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. والثاني: ما كان محفوظا في صدور الرجال. وبلغ من مبالغته في الحيطة والحذر أنه لم يقبل شيئا من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد سجل التاريخ, أن أبا بكر –رضي الله عنه–كان أول مَن جمع القرآن بهذه الصفة في مصحف، وإن وُجِدَت مصاحف فردية عند بعض الصحابة، كمصحف علي، ومصحف أُبَي، ومصحف ابن مسعود، فإنها لم تكن على هذا النحو، ولم تنل حظها من التحري والدقة، والجمع والترتيب، والاقتصار على ما لم تُنسخ تلاوته، والإجماع عليها، بمثل ما نال مصحف أبي بكر الصديق. وقد تم جمع القرآن كله في عهد أبي بكر خلال سنة واحدة تقريبا، لأن أمره زيدا بجمعه كان بعد واقعة اليمامة، وقد حصل الجمع بين هذه الواقعة ووفاة أبي بكر، وحين نتذكر كيف جمع هذا القرآن من الراقع والعسب واللخاف والأقتاب والجلود في هذه المدة القصيرة، لا يسعنا إلا أن نكبر عزيمة الصحابة الذين بذلوا أنفسهم لله, ولا يسعنا إلا أن نقول مع علي بن أبي طالب: ''رحم الله أبا بكر، هو أول من جمع كتاب الله بين اللوحين. (صبحي الصالح, مباحث في علوم القرآن, ص. ١٤١)

فقد سجل التاريخ لعمر ابن الخطاب أنه صاحب الفكرة، كما سجل لزيد بن الثابت أنه وضعها موضع التنفيذ.

ويرى بعض المستشرقين منهم المستشرق الفرنسي بلاشير, أن الجمع الذي عمل أبو بكر الصديق بالقيام به، مرحلة ثانية من مراحل تدوين القرآن الكريم، وليس مرحلة أولى لجمع القرآن كما هو واقعُ الحال مؤيَّدا بالأدلة الخبرية والعقلية الناصعة من تاريخ هذا المصحف الشريف، ويقول بلاشير:» إن جمع الخليفة أبي بكر يمثل المرحلة الثانية من تدوين القرآن، وأن سبب هذا الجمع يعود إلى الخوف من ضياع القرآن بعد أن استحر القتل بطائفة كبيرة من القراء في معركة اليمامة.'' وانبرى الإستشراقُ لبعض تفاصيل هذا الجمع الأول المبارك ملبِّسا الحق بالباطل، قادحا مروِّجا للشُّبهة والفِرية، فمن ذلك الطعن في أهلية زيد بن ثابت في اختيار أبي بكر الصديق له بالإضطلاع بالعمل المبارك الذي أثمر جمعا مسَدَّدا موَفَّقا، إذ يشكِّك بلاشير وولتش في كفاءة زيد بن ثابت ثم يلقي ظلالا من الريبة في نية أبي بكر من اختيار زيد دون غيره من النساخ، وقد كان فيهم من هو أسنُّ وأخبر بالموضوع.

هـ. عملية جمع القرآن في عهد أبي عثمان عند المفسرين والمستشرقين

اتساعات الفتوحات الإسلامية تسبب تفرّق القرَّاء في بعض الأمصار، وأخذ أهل كل مِصر عمن وفد إليهم قراءته، ووجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها، فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف، وقد يقنع بأنها جميعًا مسندة إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولكن هذا لا يحول دون تسرب الشك للناشئة التي لم تدرك الرسول، فيدور الكلام حول فصيحها وأفصحها، وذلك يؤدي إلى الملاحاة إن استفاض أمره ومردوا عليه، ثم إلى اللجاج والتأثيم، وتلك فتنة لا بد لها من علاج.

وكان أول ما يجعل عثمان عمل بجمع القرآن حين رأى حذيفة بن اليمان اختلافًا كثيرًا في وجوه القراءة، وذلك في طريق الرجوع من غزوة ''أرمينية'' وغزوة ''أذربيجان'' من أهل العراق، فرأى وبعض ذلك مشوب باللحن، مع إلف كل لقراءته، ووقوفه عندها، وممارساته مخالفة لغيره، وتكفير بعضهم الآخر، وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة فأهل الشام يقرؤون بقراءة أبي بن كعب وأهل الكوفة يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري. فقد فزع إلى عثمان –رضي الله عنه– عن هذا الخبر، وكان عثمان قد نمى إليه أن شيئًا من ذلك الخلاف يحدث لمن يُقرئون الصبية، فينشأ هؤلاء وبينهم من الاختلاف ما بينهم، فأكبر الصحابة هذا الأمر مخافة أن ينجم عنه التحريف والتبديل، وأجمعوا أمرهم أن ينسخوا الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر، ويجمعوا قراء الصحابة لكى يجمعوا عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد، فأرسل عثمان إلى حفصة، فأرسلت إليه بتلك الصحف، ثم أرسل إلى زيد

بن ثابت الأنصاري، وإلى عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين، فأمرهم أن ينسخوها في المصاحف، وأن يُكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم.

يقول الزرقاني أن عثمان في تنفيذ هذا القرار الحكيم حول أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة فعهد في نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ وهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش. ثم أرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر زوجة النبي فبعثت إليه بالصحف التي عندها وهي الصحف التي جمع القرآن فيها على عهد أبي بكر رضي الله عنه. وأخذت لجنة الأربعة هؤلاء في نسخها وجاء في بعض الروايات أن الذين ندبوا لنسخ المصاحف كانوا اثني عشر رجلا. وما كانوا يكتبون شيئا إلا بعد أن يعرض على الصحابة ويقروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على هذا النحو الذي نجده الآن في المصاحف.(الزرقاني, مناهل العرفان في علوم القرآن, ص. ٥٦٢).

ويقول الزرقاني أن عثمان قرر دستورا لجمع القرآن, أن الصحابة كانوا لا يكتبون في هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن وعلموا أنه قد استقر في العرضة الأخيرة وما أيقنوا صحته عن النبي صلى الله عليه وسلم مما لم ينسخ. وتركوا ما سوى ذلك نحو قراءة فامضوا إلى ذكر الله بدل كلمة {فَاسَعَوْا} ونحو {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً} بزيادة كلمة صالحة إلى غير ذلك. وإنما كتبوا مصاحف متعددة لأن عثمان رضي الله عنه قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين وهي الأخرى متعددة وكتبوها متفاوتة في إثبات وحذف وبدل وغيرها لأنه رضي الله عنه قصد اشتمالها على الأحرف السبعة. وجعلوها خالية من النقط والشكل تحقيقا لهذا الاحتمال أيضا. فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تجردها من النقط والشكل نحو {فَتَبَيَّنُوا} من قوله تعالى {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} فإنها تصلح أن تقرأ فتثبتوا عند خلوها من النقط والشكل وهي قراءة أخرى وكذلك كلمة ننشرها من قوله تعالى {وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا} فإن تجردها من النقط والشكل كما ترى يجعلها صالحة عندهم أن يقرؤوها {نُنْشِزُهَا} بالزاي وهي قراءة واردة أيضا وكذلك كلمة {أُفٍّ} التي ورد أنها تقرأ بسبعة وثلاثين وجها.

ويقول مناع القطان منقولا من قول ابن جرير فيما فعله عثمان:

> ''وجمعهم على مصحف واحد، وحرف واحد، وخرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه، وعزم على كل مَن كان عنده مصحف ''مخالف'' المصحف الذي جمعهم عليه، أن يحرقه، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما

فعل من ذلك الرشد والهداية، فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها، طاعة منها له، نظرًا منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها، لدثورها وعفو آثارها، وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها، من غير جحود منها صحتها وصحة شيء منها، ولكن نظرًا منها لأنفسها ولسائر أهل دينها، فلا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية.

ومنهج الآخر من هذا الجمع هو إذا وجد اللفظ الذي تختلف فيه القراءات ويدل عليه الرسم بصورة واحدة تحتمل هذا الاختلاف ويساعدهم عليه ترك الإعجام والشكل نحو {فَتَبَيَّنُوا} وننشرها كما سلف بيانه فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين شبيهة بدلالة المشترك اللفظي على كلا المعنيين المعقولين. والذي دعا الجماعون للقرآن إلى انتهاج هذه الخطة في رسم المصاحف وكتابتها أن الصحابة كانوا تلقوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه قراءاته وبكافة حروفه التي نزل عليها فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها حتى لا يقال: إنهم أسقطوا شيئا من قراءاته أو منعوا أحدا من القراءة بأي حرف شاء على حين أنها كلها منقولة نقلا متواترا عن الرسول صلى الله عليه وسلم. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ''فأي ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا'' وكان من الدستور الذي وضعه عثمان رضي الله عنه لهم في هذا الجمع أيضا أنه قال لهؤلاء القرشيين إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.(الزرقاني, مناهل العرفان, ص. ٥٩٢.)

ولقد كان الجمع للقرآن في عهد عثمان بن العفان هي مأثرة العظمى لهذه الأمة، وحسنته الكبرى،انبثق الإستشراق للقدح فيها، فكان من ذلك جملة من المطاعن نسوقها بالتفصيل واحدا فواحدا:

الأول, التشكيك في غرض عثمان من الجمع، يرى المستشرق الفرنسي ماسيه, أنه كان لعثمان هدف سياسي بعمله هذا يعادل الهدف الديني، فقد وصل إلى الخلافة بجهد، وكان قد عزَّز مركزه بإقراره نصا لا يتغير للكتاب المقدس.

الثاني, الطعن في قرار عثمان في إحراقه المصاحف الشخصية بعد تمام الجمع: يرى بلاشير ذلك الإحراق تدنيسا للمقدسات، ولذلك اعتنى الإستشراق بتتبع ما وقع في

مصاحف الصحابة الفردية من اختلافات، ونشروا ذلك وألفوا فيه البحوث والدراسات، إرجافا بالباطل، وترويجا له.

الثالث, الطعن في قيمة المصحف الإمام الذي هو بركة من بركات عثمان على هذه الأمة : يعد بلاشير أنه لم يكتمل في جوانب كثيرة، فنمطُ الخط بزعمه . الذي استعمله الناسخون لم يزل بدائيا.

الرابع, الطعن الأخير هو في المصحف الإمام من حيث كونه ناقصا لم يشتمل على جميع على المنزل على محمد : يحاول بعض المستشرقون الفرنسيين خلق صراع وهمي بين علي وعثمان ، في مسألة المصحف حتى يتسنى لهم القول إن الشيعة رفضوا الإعتراف بالمصحف العثماني.''

فأجاب صبحي الصالح عن هذه المطاعن من المستشرقين بقوله, (صبحي الصالح, , ص. ٤٢١).

أولا- إن اختلاف المسلمين في قراءة القرآن كان الباعث الأساسي على أمر عثمان باستنساخ صحف حفصة وجمعها في مصاحف. فلا مستند لبلاشير وغيره من المستشرقين في التشكيك بنيات عثمان في جمع القرآن، فمن أين لهم أن هذا الخليفة إنما سعى إلى تحقيق هذا العمل العظيم بدافع من نزعته «الأرستقراطية»، فلم يجمع كتاب الله -بزعمهم- إلا باسم الطبقة «الأرستقراطية» المكية التي كان خير ممثل لها١؟! لا مستند لهم في شيء من هذا إلا خيالهم الخصيب، وظنهم الكاذب.. وإلا فأين الرواية التاريخية الصحيحة التي تثبت دعواهم؟ وهل يفضل عاقل الأخذ بتخرصاتهم على ما أورده رجل كالبخاري ما عرف التاريخ من يضارعه في الثقة والضبط والأمانة؟

ثانيا- إن اللجنة التي كلفت بهذا العمل كانت رباعية. وإذا استثنينا زيد بن ثابت الذي كان مدنيا من الأنصار، لاحظنا أن الأعضاء الثلاثة الباقين كلهم مكيون من قريش. وهؤلاء الأربعة جميعا من ثقات الصحابة وأفاضلهم.

ثالثا- إن اللجنة الرباعية باتخاذها صحف حفصة أساسا لنسخ المصاحف إنما استندت إلى أصل أبي بكر.

رابعًا- إن القرآن نزل بلغة قريش، فهي اللغة المفضلة لكتابة النص القرآني عند حدوث الخلاف بين القرشيين الثلاثة وزيد. وسنرى أن هذا لا ينافي كتابة القرآن بطريقة تجمع الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، لأن تلك الكتابة كانت غير معجمة ولا مشكولة، ولأن وجوه القراءات كانت توزع على المصاحف حين لا يحتملها الرسم الواحد.

خامسًا- إن عثمان أرسل إلى الآفاق الإسلامية بمصحف مما نسخه

هؤلاء الأربعة، ورأى –حسما للنزاع– أن يحرق ما عدا ذلك من الصحف والمصاحف الخاصة.

وأقول في آخر هذا البحث المتواضع أن هناك السؤال أين وجدت المصاحف العثمانية الآن؟ ولن يجد بجواب على هذا السؤال، فإن الزركشة والنقوش الفاصلة بين السور أو المبينة لأعشار القرآن تنفي أن تكون المصاحف الأثرية في دار الكتب بالقاهرة عثمانية، لأن المصاحف العثمانية كانت مجردة من كل هذا. ولكن بعض المستشرقين قد جمعوا كثيرا من الروايات التاريخية التي تؤكد رؤية بعض العلماء القدامى للمصاحف أو لسور منها في أمصار إسلامية معينة, وفي طليعة هؤلاء المستشرقين الأستاذ كواترمير كما أشار إلى ذلك كل من برجشتراسر وبرتزل في دراستهما لتاريخ النص القرآني. ثم إن المستشرق كازانوفا اعتمد على دراسة سلفه كواترمير فأعاد النظر فيها واستدرك عليها الكثير، ومنه علمنا أن أحد المصاحف العثمانية كان في مستهل القرن الرابع الهجري معروفا في بعض الأوساط العلمية، وأن الرحالة المشهور ابن بطوطة رأى بنفسه بعض تلك المصاحف التي يظن أنها عثمانية. أو بعض صحائف منها فقط، في غرناطة ومراكش والبصرة وبعض المدن الأخرى, والله أعلم.

المراجع

مناع القطان, ١٢٤١هـ – ٠٠٠٢م .مباحث في علوم القرآن, مكتبة المعارف للنشر والتوزيع, الطبعة : الطبعة الثالثة.

برهان الدين الزركاشي, ٧٩٩١البرهان في علوم القرآن, بيروت, دار المعرفة.

عبد العظيم الزرقاني, مناهل العرفان في علوم القرآن, مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه, الطبعة : الطبعة الثالثة

جلال الدين السيوطي, ٠٠٠٢.الإتقان في علوم القرآن, مطبعة دار الكتب العلمية.

صبحي صالح, ٠٠٠٢.مباحث في علوم القرآن, القاهرة: دار العلم للملايين, الطبعة الرابعة والعشرون كانون الثاني/ يناير

محمد طاهر الكردي, ٦٩٩١.تاريخ القرآن, بيروت: مطبعة دار المعرفة.

محمد شرعي أبو زيد, ٠٠٢ .جمع القران: في مراحله التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث, المكتبة الشاملة.

ابو بكر كافي, ٦٠٠٢مواقف المستشرقين من جمع القرآن الكريم ورسمه وترتيبه عرض ونقد, المكتبة الشاملة.

http://vb.tafsir.net/tafsir29441/#.VNUrPi7h5O8